«إليز» ولكنه كان يحب نفسه. إنه كان يريد أن ينتقم من القدر الذي سلط عليه دمامة الخلقة، وضعف البصر، في شخص «إليز» الجميلة.

إن «كلينوف» كان قاسياً وحاقداً على البشر لأسباب عضوية بالدرجة الأولى، فدمامته ومرضه يدفعانه دوماً إلى الفظاظة والكراهية، والكيد للآخرين، وهو يفعل هذا عن وعي وعن طيب خاطر، بدليل تلك الأفكار التي كان يلقنها لطلبته في محاضراته. فما يذكره في إحدى محاضراته: «أن غرور الإنسان في تصوره أنه هو نفسه المسيطر على أفعاله، هذا الغرور السخيف هو ما يقلق النفس البشرية، ويفسد منطق قوانيننا الاجتماعية. إن تركيب مخ الإنسان وتركيب المخ فقط، هو ما يسير دفة أفعالنا، بناء على ذلك، لا يوجد شيء اسمه جريمة. فكرة العقاب خطأ من أساسها. لماذا لا يعاقب الرجل لأنه ذو شعر أسود أو أشقر؟ العنكب الذي يمتص دم بعوضة لا يرتكب ثمة جريمة.. كل ذلك من نظم الطبيعة»[١٦].

وليس من شك في أن هذا هو لب الطبيعية كما يراه زولا، ومدام كارين برامسون، وغيرهما من أقطاب هذا المذهب الأدبي.

٢) ولما كان الإنسان عبداً لغرائزه وشهواته في رأي الطبيعيين، فإنه ليس حراً في تصرفاته وسلوكه في الحياة الاجتماعية. إن الإنسان عند الطبيعيين متأثر وليس مؤثراً... إنه خاضع لجبرية قدرية لا فكاك منها إطلاقاً. إن «جاك» ليس مسؤولاً عن كل الجرائم التي ارتكبها، بل المسؤول هو التركيب الفسيولوجي الطبيعي لجسمه. وهذا ما صرّح به «كلينوف» كما رأينا منذ قليل. و«تيريز» و«فلوران» يقدمهما زولا بوصفهما كائنين بيولوجيين من غرائز وأعصاب ودماء، «فتريز» تنزع غريزياً نحو «لوران» الذي رأت فيه نموذجاً للرجولة المادية التي يفتقردها زوجها «كميل». ويجب ألا ننخدع فنظن أن الحب هو الذي كان يكمن وراء تصرفاتها، إنها الغرائز ليس إلا. وزولا نفسه ينبه إلى هذا في إحدى رسائله إلى الناقد الفرنسي الشهير «سانت بيف»، ويرفض أن يسمي تلك العلاقة التي ربطت بينهما لفترة قصيرة علاقة حب